صورة الطفل المعاق فى السينما المصرية

دار الكتب والوثائق القومية

صورة الطفل المعاق فى السينما المصرية

أ. محمود قاسم

يبدو الطفل المعاق ذو الاحتياجات الخاصة من خلال الكثير من أفلام السينما المصرية شخصًا يثير الشفقة، ليس فقط ضمن أحداث الأفلام، بل أيضًا لدى المشاهدين أنفسهم، وغالبًا ما يتم استغلال هذه الإعاقة من أجل ابتزاز الأهل خاصة الأب الذى يأمل فى شفاء ابنه بأى ثمن.

وقبل أن نستعرض مجموعة من الأفلام المصرية الشهيرة، وكيف تعاملت مع الطفل ذى الحاجات الخاصة فإن الكثير من هؤلاء الأطفال وأنواع احتياجتهم الخاصة لم تظهر فى السينما المصرية، ومنهم على سبيل المثال : الأطفال المرضى بالمانوليا، والذين قرأنا عنهم العديد فى الروايات العالمية، ومنها روايات الكاتب اليابانى أوى كينزا بورو مثل "مسألة شخصية"، وأيضًا الكثير من الأفلام العالمية، ومنها الفيلم الفرنسى "اليوم الثامن" الذى حصل ممثله المعاق المصاب بالمانوليا فى الواقع وعلى الشاشة على جائزة أحسن ممثل فى مهرجان "كان" عام ١٩٩٧.

لكن الطفل ذا الاحتياجات الخاصة الذى ظهر بصورة غالبة فى السينما المصرية هو الكسيح، والضرير، باعتبار أن نظرة الكثير من أبناء المجتمع إلى طفل المانوليا، على أساس أنه "عبيط"، أو "أبله"، وأحيانًا "متخلف عقليًا" وهى شخصيات نظر إليها فى الكثير من الأحيان بسخرية واستهزاء، وليس بتعاطف.

من أبرز هذه الشخصيات تلك التى كان يجسدها الممثل محمد صفا فى العديد من افلام الأربعينيات والخمسينيات، حيث كان يؤدى دور الصبى أو الشاب الدميم، الأبله، الذى يسعى أبوه المقتدر إلى أن يزوجه من بطلة الفيلم من أجل املاكها، وبطلة الفيلم لابد أن تكون امرأة جميلة، حسناء، لا تستحق أبدًا أن تنام فى أحضان ذلك الشخص، حسب منظور الفيلم، الذى لا يتمتع بأية كفاءة تتيح له أن يكون زوجًا كاملاً؛ لذا فالأفلام تضع مثل هذه الشخصية فى وضع السخرية، ويبدو كريهًا، غير مقبول؛ لأنه سيكون عائقًا أمام قصة حب حقيقية، يميل المتفرج إلى التعاطف معها، وأن تنتهى بزواج الحبيب بحبيبته، ولعل أبرز مثال لذلك هو ما رأيناه فى فيلم "شباك حبيبى" لعباس كامل عام ١٩٥١، فالصبى هنا دميم، أبله مهتم الأسنان، منفر فى ضحكته، ولا يمكن لأحد أن يقبله زوجًا مهما كان الأمر.

وقد لعب الممثل محمد صفا دور طفل ذا احتياجات خاصة فى فيلم "دهب" لأنور وجدى عام ١٩٥٣، فهو ابن صاحبة البيت، وتدور بينه وبين الطفلة اللقيطة "دهب" معركة حامية تنتهى بإصابته فى رأسه، فينسال الدم منه، ويذهب إلى أمه باكيًا، ويبدو شكله مثيرًا للرثاء، وأيضًا للنفور، مما يدفع بأمه إلى المشاجرة مع "وحيد ألفونسو"، وابنته بالتبنى "دهب"، وطردهما من البيت.

وقد تكرر ظهور هذا الممثل فى أفلام عديدة، ليؤدى هذه الشخصية، كان مرة طفلاً، وتارة صبيًا، ولم نره رجلاً ناضجًا، والحقيقة أن ظهوره كان مدعى للنفور أكثر من التعاطف، مما يعكس صورة هذا النوع من الأطفال الذين يحتاجون إلى تعاطف المجتمع معهم، أكثر من حاجتهم إلى هذا القدر الكبير من السخرية، والغريب أن الممثل قد تكررت أدواره فى نفس الشخصية النمطية، وأغلب الظن أنه كان هكذا فى الحياة.

وفى تلك الفترة ظهرت شخصيات مصابة بأمراض من نفس النوع فى الكثير من الأفلام، مثل الممثل الذى قام بدور العريس فى استعراض الزفاف فى نفس الفيلم "دهب"، لكن مثل هذه الشخصيات كانت قد تجاوزت سن الطفولة.

وفى أوائل الستينيات تغيرت المناظير من خلال النظر للأطفال، خاصة ذوى الاحتياجات الخاصة، مثلما رأينا فى فيلمى : "أنا الهارب" لنيازى مصطفى عام ١٩٦٢، و"بطل للنهاية" لحسام الدين مصطفى عام ١٩٦٣، وهى أفلام تدور فى أجواء بوليسية، إنسانية، الشخصية الرئيسة فيها

ضابط شرطة يعانى من ابنه المعاق، وأيضًا من إحباطات خاصة بعمله. وجسد الدور فى الفيلمين فريد شوقى.

ففى فيلم "أنا الهارب" الرائد حمدى شوقى يعانى فى وظيفته من وجود أربعة مساجين مشاغبين يسعون للهروب من السجن الذى يحكمه بكل حزم، وفى البيت فإن الابن نبيل يعانى من شلل الأطفال، وينتظر أن تجرى له عملية لا يقدر الأب على دفع ثمنها، مما يوحى أن المساجين الأربعة قد قاموا برشوته من أجل مساعدتهم على الهروب.

والأب الحازم فى السجن كضابط شرطة تتقطع نياط قلبه وهو يشاهد ابنه محرومًا من اللعب مع أقرانه، فهو غير قادر أن يقذف الكرة بقدميه والطفل المعاق هنا حزين دومًا؛ لأنه يعجز عن ممارسة ما يفعله الزملاء، فهم ينطلقون كالفراشات فى المكان، ويقفزون فوق المراجيح، ويجرون فى الحديقة، ويرمون بكرة القدم لبعضهم البعض، وعندما يحاول نبيل أن يفعل ذلك، وهو الذى يضع على قدمه اليمنى حذاءً حديديًا – جهاز – فإنه يقع على الأرض، مما يزيد من معاناة الأب وزوجته نادية "زهرة العلا".

وأمام هذه المتاعب فإن الزوجة لا تكف عن الإلحاح على رجلها أن يجد وسيلة ما من أجل تدبير المال لإجراء عملية نبيل، كى يتم شفاؤه، أى أن الحاجة الخاصة هنا التى يفتقدها الطفل يمكن علاجها، وذلك من خلال عملية جراحية، وأمام الزوج فرصة الانتقال إلى مكان بعيد كى يدبر الجنيهات اللازمة لإجراء العملية.

إذن.. فالطفل المعاق هنا يطارد أباه دومًا لكى يدبر له المال، والحديث الغالب بين الزوجين هو عن الابن المعاق، والذى يجب فى نهايته العثور على حل.. المال من أجل شفاء نبيل.

ويستغل أحد المساجين الأشداء هذه الحاجة الملحة للضابط، ويقوم والد هذا السجين "عرفان" بتدبير خطة لإبعاد الضابط حمدى عن السجن، وبعد أن تفشل محاولات عديدة له، فإن الأم تذهب إلى زوجة الضابط، وتتوسل إليها أن تأخذ منها مظروفًا يخص الضابط، وتقبل الزوجة المظروف الذى به نقود تكون سببًا فى فصل الضابط حمدى من الخدمة.

وتدور أغلب أحداث الفيلم حول محاولات الضابط إعادة المساجين الهاربين إلى الزنازين، وإثبات براءته، لكن نبيل دائمًا موجود فى خلفية الأحداث، وعندما يتمكن الضابط المفصول من إعادة المساجين يعود هو الآخر إلى الخدمة، ويحصل على مكافأة يتمكن بها من إجراء العملية للابن.

الابن هنا أصيب بشلل أطفال، وهناك أمل ما فى شفائه، ولابد للأسرة أن تلتئم سعادتها من خلال أن يصير الطفل طبيعيًا.

والسينما المصرية فى مثل هذه الأفلام تتعامل مع الإعاقة باعتبار أنها يمكن علاجها، وهى معالجة رومانسية فى المقام الأول.

وسوف نرى فى مثل هذه الأفلام أن الطفل بمثابة باعث لتحريك الأحداث، فبعد أشهر قليلة من عرض فيلم "أنا الهارب" قدم حسام الدين مصطفى فيلمه "بطل للنهاية"، وهنا نرى مؤسسة الأطفال بها بعض المعاقين، يتولى أمرها رجل الخير حافظ أمين "محمود المليجى"، وهو يطالب أعضاء النادى الذى يرأسه بالتبرع للأطفال خاصة المعاقين منهم، وذلك من أجل المشاركة فى علاجهم.

ويصور الفيلم هذا الشخص الذى يرعى الأطفال ومصالحهم على أنه فى الواقع مجرد رئيس عصابة لخطف الأطفال، من أجل الحصول على فدية كبيرة من الأغنياء، أى أن حافظ هذا لا يخطف أبناء دار الرعاية، بل أبناء الأغنياء. وأمام سلوكه هذا فإن آباء الأطفال المخطوفين يدفعون المال، ولا أحد يشك لحظة أن لهذا الرجل وجهين متناقضين.

وبعد نجاح الكثير من عمليات العصابة، وأمام تهديد جديد لمواطن باختطاف ابنته إلهام فإن الشرطة تستعين بلص تائب اسمه إبراهيم "فريد شوقى" من أجل الإيقاع بالعصابة، وهذا اللص له ابن معاق، يريد أن يدبر المال من أجله لإجراء عملية جراحية مشابهة. وهذا الطفل يدعى حسن "وجدى العربى".

الموضوع والواقع متشابهان فى الفيلمين، فعلى إبراهيم أن يعثر على خطوط توصله إلى العصابة، من أجل الحصول على المكافأة لدفع مصاريف إجراء عملية لابنه المعاق فى الخارج.

والطفل هنا يعيش فى ظروف مشابهة لنبيل، فهو يرى زملاءه يلعبون أمامه دون أن يستطيع أن يفعل مثلهم، مما يمزق نياط قلب الأم "ليلى طاهر" والأب معًا وتدفع الأم زوجها أن يعثر على عصابة خطف الأطفال بكل قوة بعد أن وعده ضابط الشرطة أن يمنحه ألفى جنيه، وذلك مبلغ كاف لإجراء العملية وشفاء الابن من الإعاقة التى تؤرق عليهم الحياة.

وفى عام ١٩٧٩ ظهرت إعاقة مختلفة، سببها الأهالى والأسرة فى فيلم "قاهر الظلام" لعاطف سالم، المأخوذ عن قصة حياة الدكتور طه حسين. تدور الأحداث فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وقد ولد الطفل سليم العينين، لكن جهل الأسرة جعل الأب "عبدالعليم خطاب" يستعين بحلاق القرية، كى يتولى علاج الرمد الذى ظهر على عينى ابنه طه - الطفل نادر نور – والحلاق هذا يستخدم اللبخة ليكسو بها عينى الصغير مما يزيد الطين بلة، وبعد محاولات عديدة فاشلة يفقد الطفل بصره وهو فى السادسة من عمره، فيصبح واحدًا من ذوى الاحتياجات الخاصة.

وهناك مشاهد مؤثرة، فالحلاق يصب فى عينى الطفل - الذى لا يكف عن الصراخ - ما لديه من خبرة معكوسة، فلا تفيد التوسلات التى يتوسلها، ولا الصراخ، ولا الدموع.

ورغم قسوة التجربة التى مر بها طه حسين الصغير، فإن الإعاقة هنا تولد لديه عبقرية لم تكن لتظهر لو كان من الأصحاء، فهو يحفظ القرآن الكريم فى سن مبكرة، ويتفوق على أقرانه فى الكتاب، ويصبح مفخرة لأبيه الذى لن ينسى قط أنه كان السبب فى إصابة ابنه بإعاقة مستديمة.

وإعاقة فقد البصر نادرة فى السينما المصرية لدى الأطفال، لكن أغلب الإعاقة هى الإصابة بالشلل، أو قطع الأطراف. وفى الأفلام التى تتناول العالم السفلى للشحاذين فإن زعماء هذه العصابات الذين يخطفون الأطفال، وتدريبهم من أجل أن يحصلوا على أكبر عائد ممكن من خلال إصابتهم بإعاقات تجعلهم من ذوى الاحتياجات الخاصة، فيستغلون عطف الناس عليهم ويمنحونهم الأموال.

وفى هذا النوع من الأفلام رأينا أطفالاً مشلولين، ومقطوعى الأيدى، أو الأقدام، يعيشون فى ظروف اجتماعية سيئة، ويلاقون المهانة الشديدة من رجال العصابة، وينامون فى أماكن أشبه بالكهوف أوالأقبية، وهم فى الغالب من اللقطاء فيهم الصبيان والبنات معًا، ومن هذه الأفلام "جعلونى مجرمًا" لعاطف سالم عام ١٩٥٥، و"حين ميسرة" لخالد يوسف ٢٠٠٨، و"العفاريت" لحسام الدين مصطفى ١٩٩١.

لكن فى فيلم "الجراج" لعلاء كريم، هناك إعاقة مشابهة، فهناك طفل مشلول وسط أسرة فقيرة، كثيرة العدد، ممزقة الأطراف، خاصة فى العلاقة بين الأبوين، وهذه الأسرة تسكن فى جراج إحدى العمارات القديمة بحى الزمالك، الأم "نعيمة" أنجبت ستة أبناء، وهى زوجة لرجل يفتقد إلى الإحساس بالمسئولية، ولا رجاء منه بالمرة.

ومن بين هؤلاء الأطفال الستة هناك الأخ المشلول، وهو طفل مجتهد، قد يستخدم إعاقته فى بعض الأحيان من أجل أن يلتقط بعض المعونات من المارة، لكنه يستذكر دروسه أسفل مصباح الشارع، لأن المنزل ليست به الإنارة الكافية.

والطفل المعاق هنا لا يعانى من إعاقته، ولا يشكو، وليست إعاقته سببًا فى تخلفه، بل هو واحد من الأخوة، يعانى معهم من الفقر والظروف الاجتماعية شديدة القسوة، ثم من المرض العضال الذى سيودى بحياة الأم، مما سيجعلها تبيع أطفالها، أو تمنحهم هدايا لبعض الأسر التى فى حاجة إلى أطفال، كى تضمن لهم حياة بعيدة عن التشرد.

والطفل المعاق هنا واحد من أسرة تتكون من ثمانية أفراد، ويسكن فى قبو بيت ملىء بالسكان، والنماذج الاجتماعية المتناقضة، وهو يختلف بالطبع عن المعاقين أبناء الضباط فى أفلام الستينيات. فليست هناك بادرة أمل واحدة فى إجراء عملية جراحية لهذا الطفل المعاق، وكل ما يحلم به هو البقاء على قيد الحياة فى ظل نفس الظروف، فنحن أمام عمل مأساوى، فليس الفقر وحده بكاف كى يحيط بأسرة "نعيمة"، وليس سفر الزوج العاق، ولكن السرطان الذى ينخر فى مخ المرأة، ويهدد حياتها بشكل حاسم.

أما الطفل الوحيد غالبًا المصاب بإعاقة مرتبطة بتخلف عقلى، فقد رأيناه فى فيلم "ليلة ساخنة" لعاطف الطيب، ولكن فى ظروف قهرية مشابهة لما سبق أن حدث فى فيلمى : "أنا الهارب"، و"بطل للنهاية".

بطل الفيلم هنا رجل من قاع المجتمع يدعى"سيد"، ويعمل سائق تاكسى، وفى ليلة رأس السنة، وبينما شوارع القاهرة تمتلئ بالأنوار والزينات، يواجه "سيد" العديد من المفارقات.

فقد كان عليه أن يسرع أولاً بنقل حماته إلى المستشفى بعد أن أصبحت حالتها الصحية خطيرة، وحين فحصها الأطباء عرفوا أنها مصابة بجلطة فى المخ، وسيد يتألم بشدة من أجل حماته، حيث كانت تقوم - بعد وفاة امرأته - بالعناية بابنه الصغير المصاب بحالة من التخلف العقلى.

ومن أجل الابن المعاق ذهنيًا والحماة المريضة فإن "سيد" يقرر أن يعمل طيلة ليلة رأس السنة. أى أن الطفل المعاق هنا سبب حقيقى لشقاء الأب، وللمتاعب الكثيرة التى قابلته ليلة رأس السنة.

والابن هنا لا يظهر كثيرًا، بل هو واحد من شخصيات هامشية عديدة فى الفيلم، ويعانى من حالة بلاهة خاصة.

والأرجح فى هذا النوع من الأفلام أن صناع الفيلم، خاصة كاتب السيناريو، لا يلجأ إلى الاستشارات الطبية، أو النفسية الخاصة بالإعاقة التى يعانى منها الأطفال، وذلك باعتبار أن حلول العقدة الرئيسة فى هذه الأفلام مرتبط بعلاج الأطفال، وإذا كان "سيد" فى فيلم "ليلة ساخنة" لا يلجأ إلى علاج ابنه، قدر اهتمامه بعلاج حماته، فإن أحداث الفيلم هنا تدور فى ساعات قليلة منذ بداية الليلة، وحتى ما بعد انبلاج العام الجديد، وسط مدينة مزدحمة بأشخاص كل منهم ينشد المنفعة على طريقته.

وقد غلبت إعاقة الشلل فى قصص الكثير من الأفلام، وكما رأينا فإن فقدان البصر كانت إعاقه نادرة، مثلما حدث فى فيلم "قاهر الظلام". أما الخرس، فإن السينما المصرية قد شغفت به عند الكبار أكثر منهم عند الأطفال، مثلما حدث فى "الخرساء"، و"الأخرس"، و"الصرخة"، وقد جسد الطفل سليمان الجندى العديد من الشخصيات المعاقة، خاصة فى فيلم "الأسطى حسن"، لكن فقدان القدرة على النطق لم يكن شائعًا فى السينما مثلما حدث لشلل الأطفال.

وبشكل عام فإن السينما كانت تسعى لعلاج حالات الإعاقة، باعتبارها مرضًا مؤقتًا أكثر منه علة مستديمة، خاصة لدى الأطفال.